الفصل الثاني

١ ـ أهمية اللغة العربية للعربي.

٢ ـ أهمية اللغة العربية للمسلم.

٣ ـ أهمية اللغة العربية للدعاة.

٤ ـ أهمية اللغة العربية للمجتهدين.

٥ ـ اللغة العربية لغة دين.

٦ ـ علاقة تضامنية بين اللغة العربية والإسلام.

٧ ـ حكم تعلم اللغة العربية للمسلم.

٨ ـ نظرة الإسلام للقوميات والشعوب واللغات.

٩ ـ الأمة الإسلامية لغتها العربية ـ مساهمة المسلمين غير العرب في إنضاج اللغة العربية وتقنينها وتقعيدها والعمل على المحافظة عليها وكمالها.

١ . أهمية اللغة العربية للعربي:

لازمت اللغة العربية بالإنسان العربي منذ وجوده الأول في شبه الجزيرة العربية مثل تلازم الإنجليزية بالإنجليزي والفرنسية بالفرنسي . والواقع أن هذا التلازم قديم جدّ، ولايستطيع المرء أن يفصل أية شخصية عن لغتها ولغة قومها .

فأهمية اللغة العربية للإنسان العربي تنبع من عدة أسباب قد نرى منها أسباباً تاريخية وجغرافية وأخرى ثقافية وتراثية وثالثة أسباباً شخصية .

فاللغة العربية مكون من مكونات التاريخ العربي الواحد، وكذلك مكون جغرافي ومكون من مكونات الشخصية العربية ذاتها .

وهي هوية، أو على الأقل الجزء الأهم من هوية الإنسان العربي . وهي تعبيرعن مكونات الشخصية الفكرية والوجدانية والتوجهات .

ومع ذلك أيضاً فحاجة العربي للعربية وأهميتها له تكمن في أهمية القرآن الكريم والدين الإسلامي .

يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله : (ومادامت اللغة التي هي الرباط ، تعني الوعاء الثقافي ، فيجب أن نعلم أن هذا الوعاء يشتمل على كثير من الأدوات الثقافية الممثلة في المعتقدات ، وفي التقاليد والعادات ، وفي القيم الروحية والأخلاقية ، وفي التاريخ الحي لكل جماعة تسمى بالقوم أو الشعب أو الأمة .

وهنا ملحوظة لابد من الإشارة إليها هي أن الأقوام قد ينتقلون من مكان إلى مكان وبخاصة في حياة البداوة . وهذا إنما يعني أن القوم يستبدلون مكاناً بمكان . أما من حيث اللغة ـ الثقافة ـ فإنهم لايستطيعون ذلك . إنهم لايستبدلون ثقافة بثقافة حين ينتقلون من مكان إلى مكان ، وإنما يحدثون تعديلاً بالإضافة أو الحذف ، وتبقى ثقافتهم بانتقالهم من مكان إلى آخر ، إنما يفقدون شخصيتهم عندما يأخذون بثقافة جديدة تبرز في الوجود شخصية جديدة . وتأسيساً علىماتقدم نستطيع القول بأن اللغة

هي الرباط الأول وأن الأرض هي الرباط الثاني)[1].

ومن هذا المنطلق نرى أن اللغة هوية للإنسان العربي هوية لتاريخه وموطنه وتراثه ودينه. فالذي يميز العربي ميزات فيزيولوجية وأخرى لغوية وثقافية. ولعل الثانية أهم بكثير إذا رجعنا فعلاً إلى التاريخ العربي ودرسناه، وقد تنبه العلماء والباحثون والمستشرقون المنصفون إلى أهمية اللغة العربية في تكوين الشخصية العربية عبر العصور بدءاً من العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحاضر.

وإذا نظرنا إلى واقع العرب في العصر الجاهلي وجدنا أنه لايفصح عن ذاته إلا من خلال اللغة العربية. فالآثار المادية قليلة ومعظم العرب كانوا قبائل رحل غزاة، وإن استقروا لم يشيّدوا ممالك وقصوراً ثابتة إلا في بعض المناطق كمكة المكرمة ويثرب وفي اليمن وبعض الأجزاء الواقعة في شمال الجزيرة أو شرقها. أما القبائل العربية، ومأأكثرها، فكانت اللغة العربية هي المفصحة عن شخصيتها وشخصية أبنائها.

وقد وصلنا الشعر العربي الجاهلي شفاهية ثم دوّن في العصر الأموي والعباسي، وكان بحق ديوان العرب والمفصح عن شخصية العربي، ولم يميز العربي أكثر من الشعر والخطابة وفصيح القول، حتى قيل إن العرب كلهم شعراء والأمة العربية أمة الشعر والشعراء. أو هي أمة الفصاحة والبلاغة.

لقد أفصح الشعر الجاهلي عن عقلية الإنسان العربي وعن اتجاهاته النفسية والفكرية والعاطفية والاجتماعية، ولو تناولنا أي قصيدة مطولة من هذا الشعر لعرفنا من خلالها طبيعة العقلية، وكذلك النفسية وطبيعة التوجه لدى الإنسان العربي.. تعرف مفهوم حب القوة والمروءة. وإغاثة المستجير والملهوف، والغزو والاعتزاز بالذات ومايلى ذلك من منظومة القيم التي كونت أو ساهمت في تكوين الشخصية العربية آنذاك.

وإذا كان أي إنسان عربي معاصر لايعترف بأن هذا الشعر العربي هو تراثه وثقافته وإبداعه في وقت من الأوقات فإنه بذلك يسلخ ماضيه عن حاضره، وينتقص

---

(١) القومية العربية والإسلام د. محمد أحمد خلف الله ـ مركز دراسات الوحدة العربية ص٢.

من شخصيته وثقافته المتراكمة عبر العصور.

وماينطبق على الشعر ينطبق على الخطابة والمثل والحكاية والعادات والتقاليد والأعراف التي سادت الحياة العربية إن كان ذلك في القبيلة أو القرية أو المدينة.

فكل هذه الإبداعات والنتاجات الفكرية والنفسية والاجتماعية تشكل مكوّناً هاماً من مكونات الشخصية العربية مهما كان زمنها أو مكانها.

واللغة هوية باعتبارها أداة الثقافة بمفهومها الواسع والشمولي. فأينما وجد إنسان سُمع وهو ينطق بالعربية عرفت هويته وقلت إنه عربي خاصة في البلاد التي يهاجر العرب إليها أو يذهبون لها للتجارة أو التعلّم.

وإذا كانت اللغة تعبيراً عن الهوية فإن لها شأنا في الإفصاح عن التاريخ. فلكل أمة تاريخها والعرب لهم تاريخهم، واللغة العربية هي التي حَفظت ذلك التاريخ القديم والحديث. وكونت لدى الإنسان العربي خلفيته التاريخية.

فاللغة هي التي أوصلت لنا معارف تاريخنا وأهلنا منذ عصور قديمة جداً، وكذلك تعرفنا من خلالها حركة الفتوحات العربية الإسلامية والعلاقات التي تشابكت بين العرب والشعوب التي دخلت الإسلام.

ولعل أسوأ مامر على الإنسان العربي أنه في بداية عصر النهضة اعتمد على مصادر المستشرقين ومراجعهم. وكان الأَوْلى أن يبقى العرب وكذلك المسلمون مالكين بأيديهم زمام التأريخ للحياة السياسية والثقافية التي عاشها العرب في عصور سابقة. والواقع أن نهضة الأمة العربية المعاصرة أو الحديثة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية بشكل كبير أعادت الكثير من الثقة للإنسان العربي بتاريخه السياسي والثقافي والفكري والاجتماعي.

والإنسان العربي الذي هو اليوم بحاجة شديدة لتأكيد هويته وانتمائه لايمكن أن يصد هجمة الإلغاء، ومن ثم التحصين والتماسك الشخصي، إلا إذا تمسك بتاريخه ولغته التي هي تعبير عن الشخصية والهوية.

ماالذي يميز العربي اليوم عن غيره؟ نعتقد أن اللغة بما فيها من معان وأفكار وبما اختزنته من التاريخ والمعارف هي التي تميزه عن غيره، خاصة في هذا العصر الذي يحاول الآخرون إلغاء الشخصية العربية تحت شعارات خادعة كالعولمة والتطبيع والثقافة العالمية المشتركة.

وحين يواجه العربي الحملة التي تريد إلغاءه لايجد مفراً من العودة إلى انتمائه، وهذا الانتماء يتعدد بناؤه، وأهم مافيه الانتماء إلى القرآن الكريم وإلى الدين الإسلامي؛ كون القرآن الكريم يمثل أعظم رسالة إلهية وكون الإسلام رافعة وحيدة للعرب والمسلمين حتى يكون لهم مكان لائق تحت الشمس.

يقول عبد الله النديم: (إن من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية رأساً ويُجنسون باللغة الطارئة. فإذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرها ضعف فيها الاستقلال بقدر ماتضعف لغتها. فإذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان)[1].

والقرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامي، ولاتراخت به الأيام إلى ماشاء الله.

وتقول بنت الشاطيء: (إن الأمة لاتحيا إذا ماتت لغتها ولن تموت لغة أمة حية) وهذا يؤكد مسألة خطرة ومهمة جداً، فإذا كانت اللغة مكوناً للشخصية وهوية وانتماء فإن عدم المحافظة عليها من قبل العربي يعني تركها وإهمالها، بل فتح أبواب التشويه عليها من قبل أعدائها.

فإذا ظلت اللغة العربية حية لدى الإنسان العربي أولاً تبقى الأمة حية، وكذلك فإن اللغة إن ماتت أو اندثرت فإن الأمة تفقد هويتها وتندثر لاقدر الله، والواقع أن الدعوة اليوم تتوجه للعرب ليتقنوا لغتهم، ليفهموا مقاصد الشريعة وليفهموا مصطلحات الدين ومفاهيمه، وخاصة موضوع القتال والجهاد والتعامل مع الآخرين

---

(١) بنت الشاطيء ص ١٤١.

الذي أدى إلى مفاهيم خاطئة استغلت من أعداء الأمة لتمزيق وحدتها الداخلية.

فمع فهم النص القرآني فهماً صحيحاً يجعل العربي والمسلم بعيداً عن التفسير المتناقض مع الدين ومع المقاصد الدينية، ويقربه جداً من التفسير الذي يتطابق مع روح الإسلام.

وقد استفادت بعض القوى من جهل بعض المسلمين بأسرار اللغة العربية فراحوا يفسرون بعض الآيات تفسيراً خاصاً يلغي الجهاد ويلغي كثيراً من الأمور التي كان عليها رسول الله ﷺ والمسلمون. بل إن بعض الحركات التخريبية ظهرت لأجل إلغاء الجهاد ضد الغاصبين والمحتلين. وثبت أن هذه الحركات ترتبط بالاستعمار والحركات اليهودية ارتباطاً وثيقاً كالقاديانية والبهائية، وكذلك بعض الرموز والأسماء المرتبطة بالدوائر الاستعمارية المشبوهة.

ومن هذا المنطلق فإن من واجب الإنسان العربي الدفاع عن اللغة العربية، لغة القرآن، والحفاظ على تطورها ونشرها. وبما أنها ترتبط بنشر الإسلام وإيصال القرآن الكريم إلى الناس كافة فإن واجب نشرها يعني واجب نشر الدين الحنيف وكتاب الله العظيم. والعمل على استمرار العلاقات العربية مع الدول الإسلامية التي تعتبر اللغة العربية اللغة الثانية بعد لغتها المحلية. وإن دعم هذه العلاقات له أهميته في تأييد قضايانا المصيرية، وتنامي التبادل الثقافي والتجاري والمصالح المشتركة مع هذه الدول التي تربطنا معها علاقات تاريخية ودينية قديمة لها دورها الهام في نهضتنا المعاصرة.

٢. أهمية اللغة العربية للمسلم:

لاشك أن المسلمين ارتبطوا بالقرآن الكريم ارتباطهم بانتمائهم العقيدي والروحي؛ ولما كان القرآن الكريم قد نزل بالعربية فإن أهمية اللغة العربية بالنسبة للمسلم تبلغ مداها وذروتها من خلال ارتباطها بفهم القرآن الكريم والحديث الشريف والشريعة الإسلامية وعلومها الفقهية والتفسيرية وغير ذلك.

فالمسلم أينما كان ومهما كانت قوميته لابد له من حرص قوي على اللغة العربية (ويأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين إذ لايزال منهما شيء

قائم كالأساس والبناء ولامنفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً.

إنما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة، والأمة تكاد تكون صنعة لغتها؛ لأن حاجتها الطبيعية التي لاتنفك عنها ولاقوام لها بغيرها، إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية)[1].

ويقول الرافعي في كتابه تحت راية القرآن.

(فأمر اللغة العربية ليس أمر لغة يطلب منها توفير التفاهم بين أبنائها فحسب، بل هي لغة عقيدة، وهي احتواء فكري ثقافي أيديولوجي خاص، نزل بها الوحي المقدس ليستنبط العالمون بها حكم الله في هذه الدنيا. وهي مخزون ثقافي مقدس يرفع الأمم إن فهمته، وتسعد به إن تدبرته، وتشقى إن تركته قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] و: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦] والأمر بالتدبر لايكون إلا لمتقن لها عالم بفنونها فاهم لمجازاتها، متطلع إلى أسرارها وبلاغتها.

والمسلمون هم الذين قعَّدوا اللغة العربية مجتمعين لحفظ القرآن)[2].

فاللغة للمسلم كما هي للعربي تعبر عن هوية وانتماء مادام القرآن الكريم للمسلمين جميعاً. ولأهميتها للمسلم التفت العلماء المسلمون غير العرب لتعلمها بل لإتقانها. وكم من عالم بزّ غيره في علوم النحو وفقه اللغة والأدب عدا العلوم الدينية الواسعة، وهو ليس بعربي العنصر بل عربي اللسان والحب والانتماء إلى القرآن العظيم.

تقول بنت الشاطيء: (والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا) وتقول: (نجد أن تاريخ علوم العربية والإسلام عرف أعلاماً من المتعربين من عصر مبكر فعلم النحو يدين لسيبويه وهو فارسي الأب...

والواقع أن العربية تجعل من جميع أفراد الأمة الإسلامية الناطقة بها جماعة

---

(١) مصطفى صادق الرافعي تحت راية القرآن ص ١١.

(٢) المرجع السابق ١١-١٢.

لغوية واحدة)[1].

وقد تناول موضوع وحدة اللغة ووحدة الأمة جمال الدين الأفغاني. وهو الذي دعا إلى نشر العربية وترسيخها في حياة المسلمين، كونها مهمة لكل مسلم يقرأ القرآن يقول: (فلا وجود للمسلمين بدون قوة الإيمان ووحدة الأركان. ولاحضارة لهم بدون وحدة اللسان المعرب عما في الوجدان، والمكسر للحواجز المصطنعة بين الأوطان). ويتابع قوله: (إن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ ولم تستحل وتنحل في غير عنصرها فهي أقرب الناس للفرص، وأعلق الخلق بإعادة مجدها وتجديد وإعادة سيرتها الأولى، ولن تثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها)[2].

وقد التفت جمال الدين الأفغاني لأهمية اللغة العربية للمسلم فقال: (لقد أهمل الأتراك أمراً عظيماً، وهو اتخاذ اللسان العربي لساناً للدولة. ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لساناً رسمياً، وسعت لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة. ولكنها فعلت العكس إذ فكرت بتتريك العرب، وماأسفهها سياسة وأسقمه من رأي. إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية)[3].

والأفغاني كما هو معروف ليس عربياً ولكنه أدرك أن الانتماء للقرآن الكريم وللإسلام يعني الانتماء إلى لغة القرآن. ولذلك سفه رأي الأتراك الذين حاولوا تتريك العرب بدل أن يحاولوا تعريب الأتراك باعتبار أن الترك ينتمون للإسلام وللقرآن العظيم.

ولعل أهمية اللغة العربية للفرد المسلم لاتقلّ عن أهميتها للدولة، وماينطبق على الدولة ينطق على الفرد. فالفرد المسلم لو تبنى لغة القرآن لكان في قوة ومنعة. لأنه يستمد قوته من لغة القرآن الكريم.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني تحقيق د. محمد عمارة الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١ ج٢ ـ ص١

(٣) نفس المصدر.

وإذا نظرنا للمسألة من زاوية أخرى رأينا أن المسلم غير العربي مستهدف في دينه مثله مثل العربي. وهذا الاستهداف يأتي من قوى كثيرة معادية، ويقصد من ورائه أولاً وقبل أي شيء إبعاده عن اللغة العربية كونها لغة القرآن الكريم. فإذا ماحقق أعداؤه إبعاده عن دينه استطاعوا بالتالي أن يضللوه ويبقى تائهاً بلا دين. لهذا فإن المسلم مطالب بأن يحافظ على عقيدته وتمسكه بالقرآن الكريم؛ لأنه، كما قلنا في أكثر من مجال، يعبر عن هويته وانتمائه.

إن أعداء الإسلام يعملون جاهدين لهدم الثقافة الإسلامية من خلال إضعاف التعلم للغة العربية، وبذلك يهدمون صلة الشعوب الإسلامية بالإسلام من خلال تشجيع تعلم اللهجات المحلية، وإبعاد المدارس الإسلامية والعربية عن شؤون الحياة الدنيا والبناء الحضاري. فالإسلام قدره اللغة العربية، واللغة العربية قدرها الإسلام، وبغير هذه العلاقة المتكاملة يتهدم الإسلام وتتهدم اللغة العربية.

وبشكل عام فإن المسلم يحتاج إلى كتاب يفهم منه مراد الله في أحكامه. وإذا كان جديد العهد في هذا الدين وكتب الإسلام كشريعة بلغته المحليه فإنها تعطيه الخطوط العريضة التي من خلالها يفهم رؤوس الأقلام كالأركان في الإسلام وكذلك أركان الإيمان والواجبات الملقاة على عاتقه.

ولكن هذا المسلم الذي يريد تطوير عقيدته، وتنامت لديه قدرته ليصل إلى مرحلة متقدمة لفهم الإسلام من منابعه الأولى؛ وأراد التعمق في معرفة النصوص ومقاصدها الكبرى، وكذلك أراد أن يسهم إسهاماً فعّالاً في الدعوة إلى الإسلام الذي آمن به، فلا بد له من تعلم اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف، والفقه والأصول وعلم الكلام. وتعلم اللغة العربية يصل إلى درجة الفرض عند الدعاة والمجتهدين والرواد الإسلاميين.

والواقع أن كل أبناء الشعوب الإسلامية الذين يعتزون بما انتجه الإسلام على أيدي المسلمين المنتمين لعدة قوميات لابد لهم من الاعتزاز باللغة العربية التي كانت النهر المتدفق لكلّ الثقافات التي صب روافدها في هذا النهر العظيم. ويحق لكل مسلم أن

يدافع عما أنتجته الحضارة الإسلامية وثقافتها؛ لأنها حضارته وثقافته. وهذا الدفاع يتطلب أيضاً الدفاع عن اللغة العربية التي أوصلت هذه الثقافة الإسلامية المشتركة إلى جميع أنحاء العالم. وحافظت على نتاجها من الضياع والنهب والتشويه.

أهمية اللغة العربية للدعاة:

لعل من أخطر الأمور في الدعوة الإسلامية أن يكون الداعي إلى الإسلام جاهلاً باللغة العربية.

والفرق بين الداعي وعامة الناس هو أنه مكلف بتبليغ الإسلام صحيحاً نقياً. وهذا لن يتوفر مالم يكن الداعي نفسه عارفاً بالقرآن الكريم وبلغته معرفة قوية جداً. ومالم يكن عارفاً بالحديث النبوي الشريف؛ كونه يفسر كثيراً من الآيات القرآنية.

فمن الطبيعي لكل داعٍ أن يكون حافظاً لأكثر الآيات القرآنية عارفاً بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني. وعارفاً بالأحكام الشرعية، ومن الطبيعي أيضاً أن الذي يتصدى لنشر الإسلام يجب أن يكون محسناً لأساليب القول المستندة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية.

فلا يكون الداعي داعياً إلا بالقرآن والسنة والأحكام وعلى من يعرف أنه غير قادر على ذلك أن يتجنب الحديث في الأحكام والتشريعات، وعندها يكتفي بالدعوة العامة المعتمدة على الخطوط الكبرى في الإسلام كالتوحيد والتعريف بالنبوة والغيبيات والأخلاق الحميدة والسلوك الاجتماعي الإنساني الرفيع.

والداعي يحتاج دوماً لتقوية إيمانه، ولن يتم ذلك إلا بتلاوة القرآن الكريم والتفكر بمعانيه ومقاصده.

وهو بحاجة للقرآن الكريم للاستدلال بآياته في كل حكم يقرره من يقرره من الفقهاء، ولتشحذ همته التلاوة، ولتزيده إخلاصاً مع إيمانه. فإذا قرأ الداعي القرآن وكان يفهم مقاصده ويفهم أهدافه ازداد إيماناً على إيمان.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

يبدأ الداعي دعوته من خلال عدة أساليب، يطرح فيها الإسلام، فمن الدعاة من يبدأ بالتوحيد والتعريف بالخالق، وهنا لابد له من حفظ الآيات الخاصة بالتوحيد من أجل قوة الاستدلال على مايقول، وعليه في هذه الحال أن يتقن لغة القرآن إتقاناً دقيقاً.

وقد قيل لو أن قارئاً قرأ (هو الأول والآخر) بفتح الخاء لكان قد كفر وأشرك وإذا كسر الخاء آمن ووحّد فليس بين الإيمان والكفر غير حركة.

والداعي أولى الناس بمعرفة هذه الأمور حتى لايقع في المحظور المخالف للدين والمسلم الداعي الذي لايعرف اللغة العربية كالإنسان الذي لايعرف قراءة الوصفة الطبية ولن يشفى إلا بمعرفة الوصفة وقراءتها والعمل بها.

والفهم المنحرف لآيات القرآن الكريم أدى إلى بروز فئات منحرفة فهمت المصطلحات القرآنية على غير ماأنزلت له.

يقول الله تعالى عن رسوله: ﴿إنما أنا بشر﴾ فإنّ مؤكدة وما نافية حسب فهمهم الخاطئ، ولذلك توصلوا إلى أن رسول الله ﷺ ليس بشراً، واعتمدوا في ذلك على مذهبهم في الفهم الذي فهموه. وقد انتشرت هذه الفئات في الهند وباكستان وبعض الدعاة الذين قرأوا القرآن قراءة خاطئة، وخاصة في موضوع الجهاد والقتال أصبحوا في جماعات تخالف المنظور الإسلامي العام، ما أدى إلى وجود بعضهم ممن يكفر بعض المسلمين، ويوجب الجهاد فيهم بدل الجهاد بأعداء العروبة والإسلام.

والمسلم الذي لايقرأ القرآن باللغة العربية لن يصل إلى الحقائق الإيمانية الكبرى يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]

فاللغة هي الوسيلة التي يتعرف فيها إلى المعاني الإيمانية الكبرى المشار إليها.

وكمثال آخر على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] فكيف فهم ويفهم بعض الناس الذين لايتقنون اللغة العربية مقاصد

هذه الآية؟ إن فهمها وفهم غيرها المتوجب على المسلم، وخاصة الداعي، يحتم عليه أن يكون متقناً للغة العربية والأصول والعلم باستنباط الأحكام.

ويوضح الشاطبي أن هناك دقائق لايهتدي إليها إلاالعلماء. والشريعة اشتملت على ماتعرفه العرب عامة ومايعرفه العلماء خاصة. ومالا يعلمه إلا الله تعالى وهي المتشابهات. وبذلك يتحتم على العلماء، ولاسيما الدعاة، معرفة الأمور اللغوية الخاصة لفهم الأسلوب القرآني، ليستطيعوا الاطلاع على الأمور الخاصة في التشريع للدفاع عنه ولاستنباط الأحكام منه.

ولاشك أن الدعاة يتفاوتون قوة وضعفاً وعمقاً وسطحية. والإسلام يدعو أن يكون الداعي قوياً في حفظه وإتقانه العربية حتى يدرك معاني القرآن الكريم ولايقع في خطأ أو محظور ينعكس سلباً على نفسية المسلمين أو غيرهم من المتلقين. يقول ابن القيم الجوزية: (فعلى الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولاً وفروعاً أمران:

أحدهما أن لايتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربياً أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب بالغاً فيه مبالغ العرب أو مبالغ الأئمة المتقدمين كسيبويه والخليل والكسائي والفراء ومن أشبههم وداناهم. وليس المراد أن يكون حافظاً كحفظهم وجامعاً كجمعهم وإنما المراد أن يصير فهمه عربياً في الجملة.

والأمر الثاني أنه إذا أشكل عليه في الكتاب أو في السنة لفظ أو معنى فلا يقوم على القول فيه دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية، فقد يكون إماماً فيها، ولكنه يخفى عليه الأمر في بعض الأوقات، فالأولى في حقه الاحتياط إذ قد يذهب على العربي المحض بعض المعاني الخاصة حتى يسأل عنها فكيف بغيرهم).

ثم يتابع قوله: (فإذا كان الأمر على هذا لزم كل من أراد أن ينظر في الكتاب والسنة، أن يتعلم الكلام الذي به أُدِّيت، وأن لايحسن ظنه بنفسه قبل الشهادة له من أهل علم العربية بأنه يستحق النظر. وأن لايستقلّ بنفسه في المسائل المشكلة التي لم

يحطْ بها علمه دون أن يسأل عنها مَنْ هو من أهلها).

ولعل من المهم للداعي أن يبدأ في تعلم لغة المسلمين الذين يدعو الداعي بينهم، فإذا ماتم له ذلك فإن امتلاكه لأسرار اللغة العربية يكون له أكبر مساعد لفهم مقاصد اللغتين وترجمة هذه إلى تلك والعكس صحيح أيضاً.

ولعل هذا الامتلاك القوي للغة يساعد الداعي على التحرك السريع بين المسلمين والاطلاع بشكل وجداني وعقلي وعملي على مايحتاجونه أو يعانون منه من مشاكل، وهذا التحرك يساعد على سرعة تفهم المسلمين للإسلام بجوهره ومداخله وأحكامه الواسعة.

وإذا مافهم الداعي عادات أي شعب مسلم وتقاليده فإنه أيضاً يستطيع أن يعالج بعضها إن كانت سلبية، ويساعد على تقوية ماهو إيجابي فيها. وهذا بالطبع مرتبط بفهمه للغة القوم، وفهمه أيضاً للغته العربية التي من خلالها يستطيع أن يجد التعابير التي تخدم دعوته ومعالجته لكل الأفكار والسلوكيات والعادات والتقاليد الاجتماعية.

ولعل قوة امتلاك الداعي للغة العربية وأسرارها وأساليبها يدفع أبناء الشعب الذي يدعو الداعي بين أفراده لتعلم هذه اللغة وحبها وامتلاكها تشبهاً بما لدى الداعي من حفظ وتمكّن وإتقان لغوي. وهذا مايزيد من عدد الدعاة مع مرور الزمن وخاصة الذين يحفظون القرآن الكريم أو يقرؤونه بشكل جيد ومتقن.

أهمية اللغة العربية للمجتهدين:

المجتهد بكل الأشكال هو طالب العلم، إن كان علماً شرعياً أو وضعياً مادياً. ولاشك أن المجتهد في مجال العلوم الإسلامية على شتى أجناسها ومناحيها ومقاصدها يحتاج أول مايحتاج لإتقان اللغة العربية، ومعرفة أسرارها ومصطلحاتها ودقائقها وأساليبها ونمط المجاز فيها والحقيقة، وكذلك الخاص والعام والنص والإشارة، وهذا مايحتم فيه الأصوليون بقولهم: (أن يكون المجتهد على علم ودراية

كافية باللغة العربيةوخواصها في إفادة المعاني. لأن مهمة المجتهد النظر في النصوص الشرعية الواردة باللغة العربية إلا لمن كان له اطلاع واسع على آدابها وفنونها وعلومها وأساليبها شعراً ونثراً وخطابة وغيرها بحيث يصبح ذا ذوق وحس مرهف بها).

ولاشك أن التاريخ الإسلامي شهد للكثيرين ممن اجتهدوا لتحصيل علوم الدين واللغة وهم مسلمون ليسوا عرباً.

والذي تدرج من هؤلاء المجتهدين إلى مرتبة العلماء فصار عالماً يتحتم عليه ويجب في حقه تعلم اللغة العربية، ليتمكن من معرفة الدليل من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهذا ماقاله الشافعي في رسالته، وماأجمع عليه علماء الأصول بوجوب معرفة اللغة العربية للعالم المجتهد؛ ليكون أقوى حجة ودليلاً في عمله واستنباطه وأدلته.

وقد تمثل ذلك عبر العصور الماضية بنبوغ العديد من المجتهدين الذين تعلموا العربية وأتقنوها وهم ليسوا عرباًبالمولد. وإنما استعربوا باللغة فصاروا عرباً، ومنهم أبو حنيفة رضي الله عنه.

وجل الذين ساهموا في نماء اللغة العربية وتقعيدها، ووضع أسسها هم من أمم غير عربية. وقد دعاهم انتماؤهم الديني إلى المساهمة الجادة، وتضافرت جهود النبغاء من كل الشعوب في الحضارة الإسلامية، وأسهموا جميعاً في ذلك، والأمثلة كثيرة لايمكن إحصاؤها من هذا القبيل.

وعندما تقوقع كل مسلم على لغته ولم تجمعهم آصرة العمل الإسلامي الشامل ضعفت الحضارة الإسلامية وتقهقر العمل الإسلامي وتمزق وتشرذم.

وقد اشترط الإمام الغزالي على المجتهد (أن يكون على علم باللغة العربية؛ لأن القرآن الذي نزل بهذه الشريعة عربي، ولأن السنة التي هي بيانه جاءت بلسان عربي) يقول أبو زهرة: (يشترط الغزالي العلم الدقيق والتبحر باللغة حتى يصل في علمه بها إلى درجة الاجتهاد فيها، وإلى درجة أن يضاهي في فهمها العربي، وأن يكون عليماً بأسرار البلاغة، ليتسامى إلى إدراك مااشتمل عليه من أحكام. وقد حدد القدر الذي يجب معرفته من العربية، فهو القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعادتهم

في الاستعمال؛ حتى يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله، وحقيقته ومجازه، وعامّه وخاصّه، ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه. وهذا لايحصل إلا لمن بلغ في اللغة درجة الاجتهاد)[1].

وفي منحى آخر فإننا إذا نظرنا اليوم إلى حاجة المجتهد للغة العربية وجدنا أن الجهد يجب أن يكون أكثر، والبذل أعظم في سبيل تحصيل اللغة وامتلاكها.

وذلك لأسباب كثيرة أهمها تشتت العالم الإسلامي وضعف صلته بالعربية، والهجمات الاستعمارية التنصيرية وغيرها لإضعاف الصلة بين المسلم واللغة العربية. إضافة لضعف الدعاة والزهد بتعلم لغة القرآن الكريم، ولضخامة الهجمة الفكرية على الفكر الإسلامي.

ولايغيب عن بالنا أن تعداد المسلمين في العالم في تزايد، وقد بلغ المليار مسلم ولو قارنا هذا العدد الهائل بعدد المجتهدين لوجدنا عدم تناسب بين العددين. والمفترض أن يكون المجتهدون أكثر بكثير مما هم عليه اليوم. ولعل قلّة عددهم أدت إلى فقدان الصلة بين الشعوب المسلمة وبين اللغة العربية والقرآن الكريم.

ومن هذا المنطلق فإن الدين يحث أبناء الإسلام أياً كانت قومياتهم أن يجتهدوا ويبذلوا مافي وسعهم لتعلم اللغة العربية لغة القرآن العظيم لنقلها إلى شعوبهم ونشرها بينهم.

وبنظرة متفحصة في واقع المسلمين مثلاً في منطقة البلقان نرى أنهم لايعرفون شيئاً سوى أنهم من المسلمين، غير أنهم لايعرفون شيئاً عن أحكام الإسلام وتشريعاته الخاصة بالنساء مثلاً. وهذا يعود لقلّة الدعاة من جهة وقلّة المجتهدين من أبناء البلقان.

ومن خلال لقاءات عدة مع بعض الطلاب والطالبات الألبان الذين يدرسون في كلية الدعوة الإسلامية العالمية تبين أنه حتى عام ١٩٨٩ كان معظم الشباب والفتيات لايعرفون شيئاً عن الإسلام سوى الهوية، وحسب أقوالهم فإن ألبانيا إبان الحكم الشيوعي السابق لم تشهد مجتهداً واحداً يدرس ثم يعود لنشر الدعوة. وقس على

---

(١) أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٥٦.

ذلك في الجمهوريات الإسلامية المنضوية في الاتحاد الروسي.

رأي العلماء في وجوب تعلم اللغة العربية:

يرتبط هذا البند المهم بعدة أمور خاصة، منها قراءة القرآن في الصلاة ومنها جواز ترجمة القرآن الكريم أو عدم جوازه.

وبشكل عام فقد حض العلماء المسلمين كافة، العرب وغير العرب على تعلم اللغة العربية كونها لغة القرآن الكريم والحديث النبوي، وركزوا على تعلمها خاصة بالنسبة لقراءة القرآن في الصلاة.

أما بشأن تعلم العربية بشكل عام فإن بعض العلماء أعتبره فرض عين تتوقف صحة الاجتهاد عليه، فإن كان ثمَّ علم لايحصل الاجتهاد في الشريعة إلا بالاجتهاد فيه فهو لابد مضطر إليه.

(والأقرب في العلوم إلى أن يكون هكذا علم اللغة العربية. ولاأعني بذلك النحو وحده، ولا علم الصرف وحده، ولا اللغة، ولا علم المعاني ولا غير ذلك من أنواع العلوم المتعلقة باللسان، بل المراد علم اللسان ألفاظ ومعان، كيف تصورت ماعدا علم الغريب).

(وبيان تعيّن هذا العلم ماتقدم في كتاب المقاصد من أن الشريعة عربية، فإذا كانت عربية فلا يفهمها حقَّ الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم. فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم اللغة العربية فهو مبتديء في فهم الشريعة أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة. والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية. فإذا انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة. فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة، وغيرهم من العظماء الذين فهموا القرآن حجة. فمن لم يبلغ شأوهم فقد من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم. وكل من قصر فهمه لم يعد حجة ولا كان قوله فيها مقبولاً، فلا بد من أن يبلغ في العربية مبلغ الأئمة فيها كالخليل وسيبويه والأخفش والمازني ومن سواهم)[1].

---

(١) الشاطبي الموافقات المجلد الرابع ص ١١٤-١١٥.

ويرى بعض الأصوليين أنه ليس من المهتم أن نبالغ هذه المبالغة في تعلم اللغة العربية، وقالوا ليس على الأصولي أن يبلغ في العربية مبلغ الخليل وسيبويه وأبي عبيدة والأصمعي، الباحثين عن دقائق الإعراب ومشكلات اللغة، وإنما يكفيه أن يحصل منها ماتتيسر به معرفة مايتعلق بالأحكام بالكتاب والسنة. وقد جاء بلفظ الغزالي (إنه القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعادتهم في الاستعمال حتى يميز بين صريح الكلام، ظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده، ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه. وهذا الذي اشترط لايحصل إلا لمن بلغ في اللغة العربية درجة الاجتهاد).

ويتابع الإمام الغزالي قوله: (والتخفيف فيه لايشترط أن يبلغ مبلغ الخليل والمبرد وأن يعلم جميع اللغة، ويتعمق في النحو. وهذا أيضاً صحيح، فالذي نفى اللزوم فيه ليس هو المقصود في الاشتراط، وإنما المقصود تحرير الفهم حتى يضاهي العربي في ذلك المقدار، وليس من شرط العربي أن يعرف جميع اللغة ولا أن يستعمل الدقائق، فكذلك المجتهد في العربية وكذلك المجتهد في الشريعة، وربما يفهم بعض الناس أنه لايشترط أن يبلغ مبلغ الخليل وسيبويه في الاجتهاد في العربية. فيبني في العربية على التقليد المحض، فيأتي في الكلام على مسائل الشريعة بما السكوت أولى به منه. وإن كان ما تُعقد عليه الخناصر جلالة في الدين، وعلماً من الأئمة المهتدين).

وقد أشار الشافعي رحمه الله في رسالته إلى هذا المعنى فقال: (وإن الله خاطب العرب بكتابه بلسانها على ماتعرف من معانيها. ثم ذكر مايعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن تخاطب العام مراداً به ظاهره وبالعام يراد به العام ويدخله الخاص ويستدل على ذلك ببعض مايدخله في الكلام. وبالعام يراد به الخاص، ويعرف بالسياق ثم قال: (فمن جهل هذا من لسانها وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة فتكلف القول في علمها تكلُّف مايجهل بعضه، ومن تكلف ماجهل ومالم يثبته معرفة كانت موافقة الصواب، وإن وافقه من حيث لايعرفه غير محمودة، وكان بخطئه غير معذور إذا نطق فيما لايحيط علمه بالفرق بين الصواب والخطأ فيه.

والحاصل أنه لاغنى بالمجتهد في الشريعة من بلوغ درجة الاجتهاد في كلام العرب بحيث يصير فهم خطابها لها وضعاً غير متكلف، ولا متوقف فيه في الغالب إلا بمقدار توقف الفطن لكلام اللبيب)[1].

ولعل موقف العلماء هذا نابع من حرصهم على قراءة القرآن الكريم بشكل متقن، وكذلك فهم الحديث النبوي الشريف. فقد ربطوا حثهم على تعلم العربية بفهم القرآن والسنة وقراءة آيات الكتاب المبين.

ومن هنا جاء رأي العلماء جميعاً بوجوب قراءة الفاتحة في الصلاة باللغة العربية، وفي هذا تفصيل واستطراد إذ إن لكل الأئمة آراء حول ذلك نوردها مبسطة حتى يفهم المجتهد والداعي مقاصد الشرع من منابعه الأصلية:

أما الحنفية. فقد اختلف النقل عن أبي حنيفة رضي الله عنه واضطربت الرواية وملخص ذلك: أجمع العلماء الأئمة على أنه لاتجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة، ويمنع فاعل ذلك أشد المنع؛ لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف في قراءة القرآن بما يخرجه عن إعجازه بل بما يوجب الركاكة. وأما القراءة في الصلاة بغير العربية فتحرم إجماعاً؛ للمعنى المتقدم، لكن لو فرض وقرأ المصلي بغير العربية أتصح صلاته أم تفسد؟.

ذكر الحنفية في كتبهم أن الإمام أبا حنيفة كان يقول أولاً: إذا قرأ المصلي بغير العربية مع قدرته عليها اكتفى بتلك القراءة. ثم رجع عن ذلك وقال: متى كان قادراً على العربية ففرضه قراءة النظم العربي. ولو قرأ بغيرها فسدت صلاته لخلوها من القراءة مع قدرته عليها والإتيان بما هو من جنس كلام الناس حيث لم يكن المقروء قرآناً.

ورواية رجوع الإمام هذه تعزى إلى أقطاب في المذهب. منهم نوح بن مريم وهو من أصحاب أبي حنيفة، ومنهم علي بن الجعد وأبو بكر الرازي وهو شيخ الحنفية في عصره، أما العاجز عن قراءة القرآن بالعربية فهو كالأمي في أنه لاقراءة عليه؛ ولكن إذا فرض أنه خالف وأدى القرآن بلغة أخرى فإن كان مايؤديه قصة أو

---

(١) الشاطبي الموافقات. المجلد الرابع ص ١١٨.

أمراً أو نهياً فسدت صلاته، لأنه متكلم بكلام وليس ذكراً. وإن كان مايؤديه ذكراً أو تنزيهاً لاتفسد صلاته[1].

وفي تفصيل الكلام على مذاهب الحنفية ذكر السرخسي إمام الحنفية في عصره قال: وأصل هذه المسألة إذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبي حنيفة رحمه الله ويكره، وعندهما لايجوز إذا كان يحسن العربية، وإذا كان لايحسنها يجوز. وأبو حنيفة، رحمه الله، استدل بما روي أن الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكانوا يقرؤون ذلك في صلاتهم حتى لانت ألسنتهم للعربية[2].

وفي النغمة القدسية للشرنبلاني (وفي فتاوى النسفي سئل عمر النسفي عمن لايحسن الفاتحة بالعربية ويقدر على التكلم بالفارسية أو لغة أخرى يتأدى بها معنى القرآن هل يكلف تعلم تلك اللغة غير العربية؟ فقال نعم لأن تعلم القرآن فرض لإقامة الصلاة. ومذهب أبي حنيفة أن القرآن لايختص بالنظم العربي في قوله الأول الذي رجع عنه. فيفرض عليه تحصيل ذلك كما يفرض تعلم القرآن بالنظم العربي لمن قدر عليه. وعندهما تجوز قراءة القرآن بغير العربية إذا كان لايحسن العربية، أما المالكية فقد جاء في حاشية الدسوقي على شرح الدردير للمالكية: لاتجوز قراءة القرآن بغير العربية بل لايجوز التكبير في الصلاة بغيرها ولا بمرادفه من العربية، فإذا عجز عن النطق بالفاتحة بالعربية وجب عليه أن يأتمّ بمن يحسنها. فإن أمكنه الائتمام ولم يأتم بطلت صلاته. وإن لم يجد إماماً سقطت عنه الفاتحة وذكر الله تعالى وسبحه بالعربية، وقالوا على كل مكلف أن يتعلم الفاتحة بالعربية وأن يبذل وسعه في ذلك، ويجهد نفسه في تعلمها ومازاد عليها، إلا أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذر[3].

---

(١) مناهل العرفان ج٢ ص ٥٩ ـ ٦٠ وكذلك مع القرآن الكريم ص ٢٥١ ـ ٢٥٣.

(٢) السرخسي. المبسوط ج١ ص ٣٧ ومابعدهما.

(٣) الدسوقي على شرح الدردير ج١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٧ بتصرف.

وجاء في المدونة (سألت ابن القاسم عمن افتتح الصلاة بالأعجمية وهو لايعرف العربية ماقول مالك فيه؟ فقال سئل مالك عن الرجل يحلف بالأعجمية فكره ذلك فقال أما يقرأ أما يصلي؟ إنكاراً لذلك، أي ليتكلم بالعربية لا بالعجمية. قال: ومايدريه الذي قال. أهو كما قال؟ أي الذي حلف به أنه هو الله. مايدريه أنه هو أم لا. قال مالك: أكره أن يدعو الرجل بالعجمية في الصلاة، ولقد رأيت مالكاً يكره العجمي أن يحلف بالعجمى ويستثقله قال ابن القاسم: وأخبرني مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عن رطانة الأعاجم وقال: إنها خب أي خبث وغش[1] وقال القاضي أبو بكر بن العربي وهو من فقهاء المالكية في تفسير قوله تعالى: ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي) سورة فصلت الآية ٤٤ قال علماؤنا هذا يبطل قول أبي حنيفة، رضي الله عنه، إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز لأن الله تعالى قال: (ولو جعلنا قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي) نفي أن يكون للعجمة إليه طريق فكيف يصرف إلى مانفى الله عنه. ثم قال: إن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً ولا اقتضى إعجازاً)[2].

أما الشافعية: فقالوا: مذهبنا أنه لاتجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب سواء أمكنته العربية أم عجز عنها. وسواء أكان في الصلاة أم في غيرها، فإن أتى بترجمته في صلاة بدلاً عنها لم تصح صلاته. سواء أحسن القراءة أم لا، وبه قال جماهير العلماء منهم مالك وأحمد وأبو داود[3].

وجاء في حاشية ترشيح المستفيدين (من جهل الفاتحة لايجوز له أن يترجم عنها لقوله تعالى: إنا أنزلنا قرآناً عربياً) والعجمي ليس كذلك وللتعبّد بألفاظ القرآن.

وقال الزركشي في البحر المحيط (لاتجوز ترجمة القرآن بالفارسية ولابغيرها

---

(١) المدونة ج١ ص ٦٢.

(٢) نقلاً عن مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٧٣.

(٣) النووي. المجموع ج٣ ص ٣٧٩.

بل تجب قراءته على الهيئة التي يتعلق بها الإعجاز لتقصير الترجمة عنه ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذي خص به دون سائر الألسن).

أما الحنبلية فقد قال ابن قدامه في المغني مانصه: (ولاتجزئُهُ القراءة بغير العربية ولا إبدال لفظ بلفظ عربي سواء أحسن قراءتها بالعربية أم لم يحسن ثم قال: فإن لم يحسن القراءة بالعربية لزمه التعلم. فإن لم يفعل مع القدرة عليه لم تصح صلاته. فإن لم يقدر أو خشي فوات الوقت وعرف من الفاتحة آية كررها سبعاً. قال القاضي لاتجزئه غير ذلك وإن لم يحسن شيئاً. وكان يحفظ غيرها من القرآن قرأ منه بقدرها إن قدر لايجزئه غيره، فإن لم يحسن شيئاً من القرآن ولا أمكنه التعلم قبل خروج الوقت لزمه أن يقول سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله.

وقال ابن حزم الحنبلي في المحلّى (من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربية أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى عامداً لذلك أو قدم كلمة أو أخرها عامداً لذلك بطلت صلاته وهو فاسق؛ لأن الله تعالى قال (قرآنا عربياً) وغير العربي ليس عربياً فليس قرآناً وإحالة القرآن تحريف لكلام الله. وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال ابن تيمية: فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور. وهذا هو الصواب الذي لاريب فيه. بل قد قال غير واحد إنه يمتنع أن يترجم سورة أو مما يقوم به الإعجاز. والدين يوجب على معتنقيه تعلم العربية لأنها لغة القرآن ومفتاح فهمه.

أما الشيعة الجعفرية فقد قال السيد محمد علي فضل الله شقيق العلامة محمد حسين فضل الله: إن القاعدة الأساسية في هذا الموضوع هي أن القرآن هو المنزل فقط وبنصه العربي، وكل ماسوى ذلك ليس قرآناً ولا مانع من الترجمة إلى غير العربية إلا أن هذه الترجمة ومهما يكن نوعها حرفية أم تفسيرية فإنها تكون للإيضاح

والشرح والتعليم وليست القرآن نفسه. فالقرآن هو المنزل باللغة العربية فقط ولاتعتبر القراءة والصلاة تعبدية إلا بالنص العربي[1].

ومن خلال ماتقدم نرى أنه إذا كان إجماع العلماء على وجوب قراءة الفاتحة باللغة العربية ورجوع أبي حنيفة لهذا الرأي كما ذكر في كتب الأحناف وتلاميذه الكبار فأصبح وجوب تعلم اللغة العربية واجباً لأن مالايتم الواجب إلا به فهو واجب، كما أن التدبر والتذكر لن يتحقق للقارىء المسلم إلا بمعرفة مفرداته وأساليبه ومقاصده. ولابد من القبول برأي أبي حنيفة بقبول الترجمة للمبتدئ حتى يتسنى له معرفة الفاتحة والتكبير والتسبيح. ثم بعد ذلك لابد له من معرفة لغة القرآن ومفرداته وأساليبه.

وإذا تسامى المسلم في سلم الإيمان وصار داعياً إلى الله عن عقيدة قوية فيتحتم عليه الرقي في تعلم اللغة العربية ليؤدي دعوته على أصولها. وهذا مانشاهده عند المسلمين الذين يتداعون من كل مكان لتعلم اللغة العربية، حتى صار كبار علماء اللغة والنحو والصرف من المسلمين غير العرب. وقد ساهم أذكياؤهم في تقعيد هذه اللغة وبسط معانيها وساهموا في حفظها وهم كثر.

وبعد هذا الكلام المفيد في وجوب تعلم اللغة العربية ولو لبعض آيات من القرآن الكريم، وخاصة سورة الفاتحة، نجد أن فضل القرآن الكريم على اللغة العربية يصل به الأمر إلى إيجاب تعلمها لكل مسلم.

ولولا القرآن الكريم لما كان لهذه اللغة هذا الإشعاع الحضاري في المعمورة قديماً وحديثاً ومستقبلاً.

وكل هذا يدعونا نحن العرب أن نهتم بتعليم هذه اللغة لكل شعوبنا ولكل الشعوب الإسلامية وهو واجب علينا وعلى حكوماتنا العربية.

ونحتاج إلى استراتيجية تعليمية على ساحة الوطن العربي والإسلامي،

---

(١) مقابلة مع السيد فضل الله بتاريخ ٥/ ٦/ ١٩٩١. نقلاً عن كتاب كيف نفهم القرآن. د. كامل موسى د. على دحروج.

ونستفيد من التقنيـة الحديثة لإيصـال لغتنا العربيـة إلـى كـل مكـان فـي العـالم، وكـل الفائدة تعود علينا إن قمنا بهذا العمل، وحافظنا على تراثنا العربي الإسلامي العظيـم، وعلى المخزون الفكري والثقافي والجماليات في لغتنا العربية التي قدسها اللـه فـأنزل بها وحياً خالداً مادامت السموات والأرض.

نظرة الإسلام للقوميات والشعوب واللغات غير العربية

استطاع الإسلام بتعاليمه السمحة أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة العربية. وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة إنما بلغة بامتلاك القلوب.

وقد أسرع الذين أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعاً إلى تعلم القرآن الكريم والحديث النبوي، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامي، وكان سكان المناطق المفتوحة يتكلمون لغات مختلفة.

ولانكاد نتقدم في كل هذه البيئات بعد فتحها بعد قرون حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها القريبة والبعيدة. وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها؛ إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة.

وقد أقبل الفرس مثلاً على العرب إقبالاً منقطع النظير. فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبيرعن عقولهم ووجدانهم، بحيث لانكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم.

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً. فقد ظلت من ذلك بقايا حتى في أكثر البيئات تعرباً أي في العراق والشام ما نشأ عنه دخول بعض الكلمات النبطية والآرامية إلى العربية. وأكثر اللغات التي ظلت حية هي الفارسية، وقد اختلط الفرس بالعرب منذ زمن بني أمية. وفي العصر العباسي تدفقوا على بغداد والحواضر الإسلامية فامتزجوا بالعرب امتزاجاً كبيراً ودخلت معهم المفردات الفارسية بشكل واسع.

وقد استند الإسلام في نظرته الكونية العالمية إلى تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية. ولو نظرنا إلى العقائد بشتى أشكالها وجدنا أنها لاتستند إلى التساوي بين البشر. فاليهود اعتقدوا أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم من البشر دونيون أقل

منهم قيمة . وكذلك فإن العقائد الهندية الوثنية استندت إلى مقولة الطبقات ومنها طبقة المنبوذين الذين تمارس معهم أبشع أساليب التفرقة العنصرية الدينية. وجاء الإسلام ليلغي كل أنواع التميز القومي أو الطبقي أو اللوني.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجاءت السنة بالمعاني نفسها، فحددت التقوى مقياساً للتفاضل عند الله سبحانه فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى.

وكما رأينا فقد دخل العرب المسلمون فاتحين داعين إلى التوحيد كثيراً من البلاد في آسيا وإفريقية وغيرهما، فلم يميزوا بين شخص وآخر، مادام التوحيد عقيدة الجميع. ولهذا السبب وجدنا الناس على اختلاف أعراقهم وأجناسهم قد تقبلوا الإسلام ودخلوا فيه ووجدوا في تعاليمه الملاذ الآمن من خطر الفوقية والعنصرية والتميز.

وكما احترم الإسلام كل الشعوب كذلك احترم تفكيرهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم مالم تخالف منهج الإسلام التوحيدي.

وقد أقر الإسلام أن الشيء الطبيعي لدى بني البشر هو اختلاف اللغات والألسنة فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وقد تجسد الفكر الإنساني والاتجاه العالمي عند رسول الله ﷺ في خطبة يقرر فيها من هو العربي.

يقول عليه الصلاة والسلام: «أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب أو أم ولكنها اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي» فهذه كلمات تقرر شهادة ميلاد المضمون الحضاري العربي الإسلامي البعيد عن العرق والجنس واللون.

ولذلك نلاحظ أن جميع العلماء الذين أنتجوا الحضارة العربية الإسلامية كانت

جنسيتهم الوجدانية عربية بقطع النظر عن أصولهم العرقية. وعلى هذا الأساس اعتزوا بجنسيتهم الوجدانية هذه على الدوام[1].

لقد ظل المسلمون في تاريخهم الطويل يُجلُّون العرب لمكانتهم في الدين الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية بصورة عامة. ورأينا من بينهم من برى الانتساب للعرب شرفاً وهو في أقصى البعد العرقي عن العرب. إن الشعوب تبحث لإيجاد الأصدقاء، والشعوب الإسلامية غير العربية هم أخوة للعرب وحلفاء طبيعيون لهم[2].

وقد انطلق المسلمون على شتى انتماءاتهم العرقية تجاه بعضهم من منطلق أخوي واضح، فالمؤمنون إخوة والأخوَّة أسمى أنواع التآلف والتحالف والارتباط. وقد غير الإسلام كل أنواع التحالفات القبلية والقومية وجعل العلاء فقط لدائرة الأخوَّة الإيمانية الإسلامية، وهذا ماعتبر ثورة حقيقية على المفاهيم العنصرية العصبية غيرت في بنية التفكير والوجدان لدى كل من اعتنقوا الإسلام ودخلوا دائرة الإيمان.

ومما يدلل على احترام الإسلام للشعوب الإسلامية ولبناتها مارواه الجاحظ عن قاضٍ من قضاة البصرة ووعاظها وهو موسى الأسواري إذ يقول: كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدرَى بأي لسان هو أبين[3].

وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلمون الفارسية ويحسنونها حتى لنراها تدور في مجالسهم[4] وحتى لنرى الأصمعي العربي القح يفهم مايجري منها على لسان بعض الفرس. ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة الكثيرين في الحياة اليومية

---

(١) القومية العربية والإسلام ص ١١٢.

(٢) المرجع السابق ص ١١٣.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ج١ ص ٣٦٨.

(٤) الأصفهاني. كتاب الأغاني طبعة الساسي ١٧/ ١٩.

لبغداد والكوفة والبصرة، وذلك لأنها كانت لغة الحضارة الفارسية، دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة. وخاصة ماتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس[1].

ومما زاد في احترام الشعوب الإسلامية بعضها لبعض واحترامها لإنسانيتها امتزاج العرب بغيرهم امتزاجاً دموياً وامتزاجاً ثقافياً، خاصة مع المسيحية، وذلك في العصر العباسي، وقد نشأ جيل جديد كبير أمهاته من المسيحيات الروميات. وطبيعي أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن. وقد كان للأناجيل تأثير في بعض الوجوه، فقد كانوا يقرؤونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله في وعظهم. ومما لاشك فيه أن المسلمين اندمجوا بالنصارى في هذا العصر اندماجاً واسعاً. وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقلة علوم الأوائل، كما جعلهم يملؤون قلوبهم أمناً ورضاً دون أي عسف أو ظلم[2].

لقد امتازت العروبة بنظرة إنسانية تجاه كل الذين دخلو الإسلام من الشعوب والأقوام الأخرى. (فما كان العرب المسلمون يفرضون على الشعوب أن تصبح عرباً وإنما أن تسلم كما يدعو الإسلام. ولم يفرضوا وفقاً لعقيدة الإسلام وتعاليمه على أهل الكتاب سواء أكانوا عرباً أم عجماً تغيير دينهم، وإنما أن يصبحوا جزءاً من دار الإسلام. وهكذا شهد العالم نمطاً جديداً من الفتح ومن العلائق بين الشعوب والأديان[3].

لقد أراد الإسلام من الشعوب أن تصبح جزءاً من الأمة الإسلامية وليس من الأمة العربية، كما أراد من العرب أن يبنوا دولة الإسلام لا أن يبنوا دولتهم القومية العربية المشابهة للرومانية أو اليومانية أو الساسانية.

ولعل هذا الأسلوب الذي اعتمده الفاتحون العرب حبب الناس أكثر فأكثر بالدخول في الإسلام طوعاً ومحبة. وهذا مالم يكن معروفاً من قبل لدى كل

---

(١) د. شوقي ضيف. العصر العباسي الأول ص ٩٢.

(٢) د. شوقي ضيف. العصر العباسي الأول ص ٩٨.

(٣) منير شفيق. من كتاب القومية العربية والإسلام ص ٦٣٠.

الفاتحين القدامى، وحين ننظر إلى المستند الذي اعتمده العرب المسلمون عندما اسقروا واستقرت البلاد التي فتحوها ونشروا الإسلام فيها نرى أنه مستند قرآني أولاً ومستند نبوي ثانياً، فاختلاف اللغات والألسنة والألوان والقوميات حكمة من حكم الله عز وجل وسر من أسرار خلقه.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فهذه الآية التي هي من سورة الروم تعلم المسلم أن هناك حكمة إلهية في جعل الألسنة مختلفة. فهي درس إلهي للمسلم بأن اختلاف الألسنة بين الناس والشعوب ليس معناه تفضيل أحد على أحد أو شعب على شعب أو قومية على قومية.

وقد تنبه لهذه المسألة كل الكتاب والعلماء والعرب والمسلمين منذ بدء عصر التدوين والتوسع في الترجمة من العربية إلى غيرها من اللغات أو من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، فلم نسمع عالماً لغوياً ذم لغة قوم، أو قال بأفضلية لغة على لغة. وقد فتحوا الباب واسعاً أمام جميع الشعوب الإسلامية للاختلاط اللغوي والتقدم في الاستفادة من علوم جميع اللغات وثقافاتها. ولهذا نجد اليوم عدداً من اللغات تختلط مفرداتها بمفردات اللغة الأم، وكمثال على ذلك اللغة الفارسية، وكذلك التركية، والإسبانية، والصقلية، والمالطية، وغيرها من اللغات.

دور المسلمين غير العرب في إنضاج العربية وتقنينها وتطورها

لقد أدرك العلماء أن اللغة العربية هي لغة للمسلمين جميعاً، وذلك بسبب ارتباطها بالقرآن الكريم. وكما شعروا بأن من واجب كل مسلم أن يتعلم لغة القرآن كذلك شعروا بأن من واجبهم المساهمة في إنضاج اللغة وتقنينها وتطويرها حتى تساير مع كل عصر من العصور.

وعلى مدى القرون التي شهدت توسع الدولة الإسلامية وتطورها في كل المجالات وُجد علماء مسلمون غير عرب ساهموا بشكل فعال في تأليف كتب النحو والبلاغة واللغة والأدب، وهذه الكتب ماتزال المراجع الأساسية لكل من يرغب التعلّم والتعمق في هذه العلوم.

وإضافة إلى ذلك فقد نبغ شعراء من الأقوام غير العربية حتى وصلوا الذروة في إبداعهم وتفننهم في شكل الشعر ومضامينه/ من هؤلاء مثلاً بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية وغيرهم. وماتزال نتاجاتهم الشعرية تدرس حتى وقتنا هذا، على أنها نتاج شعريّ عربي إسلامي.

أما في علوم اللغة العربية وآدابها فلا بد لنا من وقفة متعمقة مع بعض هؤلاء العلماء المسلمين الذين ساهموا بشكل فعال في تطوير اللغة والحفاظ على جمالها وأساليبها، ومن هؤلاء أبو علي القالي مؤلف كتاب الأمالي، وسيبويه الذي كان زعيم المدرسة البصرية في النحو، وعبد القاهر الجرجاني الذي خرج بأعظم نظرية بلاغية نقدية على مر العصور.

أبو علي القالي:

فأبو علي القالي هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان، وجده سلمان هو مولى عبد الملك بن مروان الأموي، وولد أبو

علي في منازجرد من ديار بكر، فنشأ بها ورحل منها إلى بغداد. وهذا يدلنا على أن أصله كردي من منطقة ديار بكر التي انتشرت بها القبائل الكردية، وقد نسب إلى قرية قالي قلا من قرى منازجرد، وقد جدّ في التحصيل على علماء الحديث وجهابذة اللغة والرواية. فسمع بها الحديث من أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي الذي ينسب هو الآخر إلى بلد في خراسان. وكان محدث العراق في عصره على الرغم من أصله الفارسي. وتتلمذ القالي على يد أبي زفر العدوي والسجستاني. وقرأ النحو والعربية على ابن درستويه وهو أيضاً فارسي، وهو من أشهر النحويين في عصره، وقد تتلمذ على ابن قتيبة والمبرد. وتتلمذ القالي كذلك على الأخفش الصغير ونفطويه وابن دريد وابن السراج وابن الأنباري وغيرهم، وقد مال أبو علي القالي بطبعه إلى اللغة وعلوم الأدب، فبرع فيها واستكثر منها، ونبغ نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه. وعده المؤرخون إماماً ثبتاً وحجة ثقة فوصفه الضّبي في كتابه (بغية الملتمس) بقوله: (كان إماماً في علم اللغة، متقدماً فيها متقناً لها، فاستفاد الناس منه وعَوَّلوا عليه واتخذوه حجة فيما نقله، وكانت كتبه في غاية التقييد والضبط والإتقان، وقد ألف في علمه الذي اختص به تآليف تدل على سعة علمه وروايته).

وبسبب ذيوع صيته بعث له الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر يستحضره إلى حاضرة الأندلس التي كانت آنذاك منارة الحضارة الإسلامية في الأندلس والمغرب. وقد ذهب القالي إلى الأندلس فاحتُفل به وبقدومه وأكرمه الخليفة إكراماً قلّ مثله. وكلف بتعليم ابن الخليفة الحكم، وقد أقبل العلماء والأدباء على أبي علي القالي يستفيدون من علمه وغزارة حفظه لغريب اللغة. وكان له مجلسه في الجامع الكبير بالزهراء يؤمه الأدباء والعلماء ومحبو اللغة والأدب.

وقد أجمع المؤرخون بذكاء أبي علي النادر ونبوغه الفائق. وعدوه أحفظ أهل زمانه، قال الضبي في كتابه بغية الملتمس الصفحة ٢١٨: (كان أحفظ أهل زمانه للغة، وأرواهم للشعر، وأعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً في ذلك) وقد حدث بهذا ابن خلّكان وياقوت الحموي وصاحب نفح الطيب المقري.

ولعل مايشهد له على مابذله من جهد في العربية وعلومها الكتب التي صنفها، فكتاب الأمالي معروف بين الناس، كثير الفوائد. غاية في معناه. وكتاب الممدود والمقصور، وقد رتبه على التفعيل ومخارج الحروف في الحلق. مستقصى في بابه لايشذ منه شيء في معناه لم يوضع مثله. وكتاب الإبل ونتاجها وماتصرف منها. وكتاب حُلى الإنسان والخيل وشياتها. وكتاب فعلتُ وأفعلت. وكتاب مقاتل الفرسان. وكتاب تفسير السبع الطوال. وكتاب البارع في اللغة على حروف المعجم.

وقد عد كتابه واحداً من أهم أربعة كتب في التراث العربي، وهي الكامل للمبرد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ. إضافة لكتابه الأمالي.

ومازال كتابه الأمالي يدرس في الصفوف الأولى من الجامعة في قسم اللغة العربية لما له من أهمية بالغة، وخاصة في غريب اللغة وشرح المفردات الغريبة.

ولعل من أهم ميزات الأمالي أنه يغص بالمقاطع الشعرية الحاوية غريب اللغة. فيقوم القالي بشرح الغريب وأوزانه ومرادفاته. ويعلق على المفردة تعليقاً موضحاً، ويدل هذا على سعة حفظه لعشرات الآلآف من الأشعار العربية النادرة. وكذلك لعشرات الآلاف من المفردات الغريبة وشروحها وبسط معانيها وأوزانها.

وإذا كان شأن أبي علي القالي في الأدب وغريب اللغة هذا الشأن فإن سيبويه الفارسي الأصل من أشهر علماء النحو العربي في العصر العباسي الأول الذي شهد توسعاً عاماً في مختلف العلوم.

سيبويه:

وقد تتلمذ سيبويه على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٥هـ وهو واضع أسس علم النحو. لكن سيبويه أدى علم النحو كما تلقاه عن أستاذه وقد صنف كتاباً في النحو أسماه (الكتاب)، وهو في كثير من صفحاته يحكي آراءه وقد ذكره في نحو ثلاثمائة وسبعين موضعاً.

ومع استفادة سيبويه من كتاب أستاذه الخليل استطاع أن يصنف كتاباً أسماه القياس والعلل. أما القياس فيتضح في ضبطه القواعد واطرادها بحيث تنفى الشواذ.

وأما العلل فمقدمات القياس التي تثبت صحة بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة.

وقد خلف سيبويه أستاذه الخليل. واعتبر كتابه في النحو أحد أهم الكتب النحوية العلمية التي وصلتنا. وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١، فكان الطلاب يقرؤونه عليه ويشرحه لهم ويفسره. وله في النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من الغموض والتعقيد رغبة في التكسب بها على رأي الجاحظ. واشتهر بأنه أول من أولى غريب كل بيت من الشعر تحته. كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه.

والواقع أن علم النحو الذي وضع أسسه وقعده سيبويه لم تغير الأجيال فيه شيئاً من أسسه وقواعده، وإن وسعته توسيعاً مختلف النواحي، أو غيرت من صوره وقوالبه. والحقيقة أن كتاب سيبويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال اللغوي عند عرب البادية دون استثناء. فهو يرجع دائماً في شؤون الاستعمال اللغوي إلى العرب، مع إشارته هنا وهناك إلى الفروق اللهجية من غير أن يحيد في ذلك عن ترجيح كفة اللسان الحجازي بأنه الأول والأقدم.

وغالباً يكتفي في ذلك بعبارات عامة مثل (العرب الذين تُرضى عربيتهم أو العرب الموثوق بعربيتهم، أو عربي أثق بعربيته). وهي عبارة حملها بعض المتأخرين غلطاً على أبي زيد الأنصاري. وامتاز سيبويه بأنه كان لا يورد في شواهده شاعراً محدثاً قط. على الرغم من أنه لم يكن يقيس لغة الشعراء بمقياس أصحاب حركة التنقية، فهو يستشهد بعدي بن زيد وابي داود اللَّذَيْن لم يرو عرب البادية أشعارهما بشهادة الأصمعي لانحراف لهجتهما عن لغة نجد. وهو يستشهد على النقيض من أكثر علماء اللغة بأمية بن أبي الصلت وغيره من الحنفاء[1].

وكان العلماء المسلمون قد ساهموا أيضاً في علوم البلاغة والنقد مساهمة كبرى على الرغم من أن هذا العلم ـ البلاغة والنقد ـ يحتاج لتذوق عال للغة العربية.

---

(١) يوهان فك: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ص ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦١ ترجمة د. رمضان عبد التواب ١٩٨٠.

عبد القادر الجرجاني:

وكان عبد القاهر الجرجاني أشهر العلماء وأبدعهم في ذلك. ولعل كتابيه أسرار البلاغة، ودلائل الاعجاز، من أهم الكتب البلاغية النقدية في اللغة العربية إن لم يكونا الأهم فعلاً.

فكتاب دلائل الإعجاز يقدم نظرية في البلاغة والنقد قل نظيرها، وهي المسماة نظرية النظم.

فالجرجاني ينتسب إلى جرجان الواقعة في شمال بلاد فارس لكنه بز غيره من علماء البلاغة العرب وغيرهم.

ففي أهم مايطرحه الجرجاني يرى أن النحو يأخذ فضلاً كبيراً في معرفة دراسة النظم ونظريته. فالألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها والأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها. فعلى الرغم من وضوح مايطرحه فإن ذلك يعتبر قاعدة صحيحة للمتذوق والدارس في معرفة المعاني المستخلصة من الألفاظ ونحوها. فلا يمكن التوصل إلى فهم الألفاظ وارتباطاتها بعضها ببعض إلا من خلال النحو ومعرفة الفاعل من المفعول والخبر من المبتدأ أو الصفة من الحال وماشاكل ذلك.

ومن خلال ترتيب منهج الجرجاني ندرك أنه قد أصاب الهدف في شرحه لأهمية النحو قبل أن يأخذ بالحديث عن نظرية النظم، وأهميته تأتي من خلال البدء في معرفة أصول النحو حتى ندرك أهمية الكلمة، وهي تدخل في سياق النظم لتؤدي غرضها اللغوي وغرضها المعنوي. وهذا يدل علىأن الجرجاني يدرك بعقله النقدي المتطور وحسن موقعها النحوي أولاً ثم من خلال موقعها في سياق الكلام ثانياً. واستند الجرجاني في شواهده على القرآن الكريم وهو ماجعل مقياسه أقوى المقاييس وأشدها تماسكاً. والواقع أن نظرية الجرجاني البلاغية النقدية التطبيقية خير دليل على إدراك العرب لمعالم علم اللغة وإبداعهم فيه، وسبقهم للغرب في تلمسه ووضع خطوطه.

والواقع أن عبد القاهر كشف بشكل دقيق عن العلاقة بين اللغة والفكر. وآراؤه في ذلك كانت سابقة لآراء (جون ديوي) العالم الأمريكي الذي خاض في فلسفة اللغة وعلاقتها بالفكر حتى عد من كبار الفلاسفة اللغويين في القرن العشرين.

وقد أشاد الدكتور محمد مندور بكتاب دلائل الإعجاز حتى إنه قال: إنني لاأعدل بكتاب دلائل الإعجاز كتاباً آخر. ومنهج عبد القاهر هو المنهج المعتبر اليوم في العالم الغربي. وإن المنهج اللغوي الذي يضم إلى النحو كما نفهمه علم التراكيب الذي يشبه مانسميه اليوم علم المعاني؛ هذا المنهج الذي وضعه عبد القاهر الجرجاني خليق بأن يجود فهمنا لتراثنا الأدبي العربي الإسلامي كله.

وعندما آمن هؤلاء العلماء بالإسلام وأيقنوا أنهم لن يصلوا إلى حقائق القرآن الكريم إلا بتعلمهم القواعد الأساسية لفهم لغته، عملوا جاهدين لإيجاد قواعد النحو، وقواعد الصرف، وقواعد البلاغة والمعاني والبديع ليساهموا مساهمة فعالة في تبسيط الطرق الموصلة إلى تعلم اللغة العربية، وبالتالي الوصول إلى فهم مقاصد الشريعة من منابعها الأولى القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولتمكين المجتهدين من امتلاك القدرة على الاستنباط من أدلتها من خلال إتقانهم لقواعد أساسية في اللغة. ومادعاهم إلى ذلك إلا حرصهم الشديد على دينهم الذي ملك عليهم قدراتهم التي سخروها للمسلمين في إنتاج فكري لغوي نحوي بلاغي يدين العرب لهم به إلى يوم القيامة.